تمثلات الأنا الحكيمة والمتعالية في شعر ابن الخياط الدمشقي ت ٥١٧هـ

م. د. سوسن شنان بحر الفتلاوي

المديرية العامة لتربية الديوانية

معهد الفنون الجميلة للبنات

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٥/٩/١

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٥/١٠/٢٠

الملخص :

تعددت الظواهر الفنية في النصوص الشعرية ولاسيما النص الشعري القديم ، لثراء لغته ، ورصانة بنائه ، فضلا عن جمال نسيجه الشعري ، وهذه التعددية إنما هي دليل على ثراء التجربة ونضجها بالنسبة للشعراء أنفسهم ، وفي هذه البحث تحاول الباحثة أن تقف عند موضوع محدد في شعر (ابن الخياط الدمشقي) ذلك الشاعر الذي أقل ما يمكن أن يقال عنه إنه شاعر قد نحى بالشعر منحى جماليا ، فجاءت صوره جميلة مؤثرة ، وسنقف في هذه البحث عند ((تمثلات الأنا) في شعره ، من خلال تحليل وكشف لتلك التمثلات ، ومن ثم ربطها بالصورة الشعرية ، بمعنى أننا ستحاول أن نكشف عن الصورة الشعرية وجمالها من خلال الوقوف عند تلك التمثلات للأنا في شعره ، فالغرض من تلك الدراسة ، هو الوقوف عند نماذج شعرية من شعره التي كان للأنا فيها تمثّل توظيفي خاص ، وهذا التمثل التوظيفي وجدناه عاملا رئيسا في عملية تشكيل الصور وخلق المعاني داخل تلك النماذج . وخلص البحث إلى عدد من النتائج أدرجت في نهاية البحث.

الكلمات المفتاحية : التمثلات ، الأنا ، شعر ابن الخياط الدمشقي

Manifestations of the Wise and Transcendnt self in the Poetry of Ibn al-Khayyate al-Dimashqi(d. 517 AH)

Dr. Sawsan Shannan Bahar Al-Fatlawiy

The General Directorate of Education in Al-diwaniyah –

Institute of fine Arts for Girls

alftlawym579@gmail.com

Date received: 1/9/2025
Acceptance date: 20/10/2025

Abstract

The artistic phenomena in poetic texts—particularly in classical poetry—are remarkably diverse, owing to the richness of their language, the solidity of their structure, and the beauty of their poetic fabric. Such diversity reflects the abundance and maturity of the poets' experiences. This study seeks to examine a specific aspect of the poetry of Ibn al-Khayyāt al-Dimashqī, a poet whose works may justly be described as having taken an explicitly aesthetic orientation, producing images of notable beauty and emotional resonance. The research focuses on the representations of the self in his poetry, through an analytical exploration of these representations and their relation to the poetic image. In doing so, it aims to uncover the aesthetic value of imagery as shaped by the manifestations of the self within his verse. The objective of the study is to highlight poetic examples wherein the self is employed as a distinctive functional representation, which, as demonstrated, constitutes a central factor in shaping imagery and generating meaning within the texts. The study concludes with a set of findings presented at its end.

Keyword: Reperesentation , The Ego ,Ibn-al-Khayyat al-Dimashqi Poetry

أولا: في ترجمة الشاعر:

مما لاشك فيه أن الترجمة أو السيرة الذاتية تسهم بقدر كبير في تسهيل عملية التحليل والكشف والرصد ، فهي إذن ضرورة منهجية رأتها الباحثة من أجل ربط السياق الخارجي (الترجمة) ، بالسياق الداخلي (الأنا المتعالية والحكيمة) ، في شعر (ابن الخياط الدمشقي) ، ومن هنا كانت الترجمة جزءا لا يتجزأ من البحث، كون الحالة النفسية والاجتماعية والفكرية تلقي بظلالها على المنجز الشعري ، فالأنا على وفق تلك التمثلات (التعالي والحكمة) ، لابد أن يكون وراءهما نسق سياقي مؤثر وكاشف عن محددات تمثل الأنا ،

فابن الخياط الدمشقي ، ((أحمد بن سني الدولة أبي الكتائب الكاتب ابن علي ، وهو من طرابلس ، وكتب أبو عبد الله بحماة لأبي الفوارس بن مانك ، وخدمه مدة ، ثم اشتهر بالشعر ، ومدح الملوك والأمراء ، واجتمع بحلب بالأمير أبي الفتيان بن حيوس ، وروى عنه ، وعن السابق محمد بن الخضر بن أبي مهزول المعري ، وحسان بن الحباب ، وأبي نصر بن الخيسي ، وعبد الله بن أحمد بن الدويدة)) [1]

وجاء في كتاب (وفيات الأعيان) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي الكاتب؛ كان من الشعراء المجيدين، طاف البلاد، وامتدح الناس، ودخل بلاد العجم وامتدح بها [2]

لقد ذكر عمر فروخ أنه ولد ((في دمشق وكان أبوه خيَّاطا، فاشتهر بالنِّسبة إليه. نشأ بجوار الأمير أبي الفتيان ابن حيّوس، شاعر الشَّام عندئذ، وودَّ لو يكون مثله في الشَّاعريَّة ورغد العيش. كان كثير التَّرحُّل والسَّفر في بلاد العرب والعجم وعاد في نهاية المطاف إلى بلده دمشق حيث توفي)) [3].

ولِدَ أحمد بن محمد بن علي في مدينة دمشق، وكانت ولادته في سنة ٤٥٠ هـ، في أسرةٍ تعود أصولها إلى قبيلة تغلب العربيَّة. كان أبوه يعمل خياطاً، لذا لُقِّب بابن الخياط. نشأ ابن الخياط في مدينة دمشق، التي كانت حينها تحت سيطرة الدولة الفاطميَّة، فلمَّا استولى عليها السلاجقة هجر المدينةَ أهلُها، ومن بينهم ابن الخياط الذي كان يبلغ حينها ثمانية عشر عاماً، فغادر إلى حماة، حيث مكث هناك لعدَّة سنين اتصل خلالها بالأمير محمد بن مانك وعمل كاتباً له. ثمَّ خرج إلى مدينة شيزر، ومدح أميرها علي بن مقلد بن منقذ. ثُمَّ انتقل بعدها إلى حلب ومدح أمراءها، والتقى هناك بالشاعر ابن حيوس. وفي ٤٧٦ هـ غادر حلب إلى طرابلس،

واستقرَّ هناك لمدة عشر سنين، بلغ فيها أوج شهرته، وتقرَّب فيها من حاكم طرابلس جلال الدين بن عمار وغيره من ذوي السلطان. وكان يغادر طرابلس أحياناً في رحلات قصيرة، فخرج مرة إلى صور ودخل على واليها منير الدولة. وأخيراً غادر طرابلس وعاد إلى دمشق، وظلَّ هناك بصحبة الوزير السلجوقي هبة الله بن بديع الأصفهاني، وسافر معه إلى بلاد فارس فدخل خراسان والري، ثُمَّ عاد إلى دمشق. تُوفِّي ابن الخياط في سنة ٥١٧ هـ في مدينة دمشق [4]

ويذكر كذلك أن الشاعر قد ((قصد إلى حماة أوَّل الأمر وهو يافع، وتولَّى الكتابة لدى أميرها، ومدحه فعرف بابن الخيَّاط الكاتب. وانعطف إلى شيزر المشرفة على العاصي، ومدح صاحبها الأمير علي بن مقلَّد بن منقذ. ثمَّ انطلق إلى حلب وكان يحكمها بنو مرداس، آملاً صحبة جاره القديم ابن حيّوس وكان قد أسن، فعرض عليه شعره وحظي بمباركته وعطائه)) [5]

أما شعره ، فقد كان على وفق رأي (عمر الدقاق) ((يعتمد على طبعه وذوقه أكثر ممَّا يعتمد على علمه وثقافته. وقد يترخَّص في شعره، ويتوسَّع في القياس ويتساهل في اللُّغة. وهو حريص على المنحى القديم في صياغة قصائده. ويقلُّ لديه الابتكار في الصُّور والمعاني كما تقلُّ في شعره الصَّنعة والمعاودة والتَّنقيح، وآية ذلك جنوحه للارتجال في مثل الإخوانيات والمناسبات الاجتماعيَّة والوصف. ومع ذلك أسقط من ديوانه بواكير أشعاره إذ عرف عنه بأنَّه مكثر، فكان ديوانه متوسط الحجم، وهو ما ارتضاه وأقرَّ تلميذه الشَّاعر القيسرانيّ عليه، وهو راويته وجامع شعره وصانع ديوانه. أكثر شعره في المديح، وبعضه في الرِّثاء والوصف والإخوانيَّات والخمريَّات، وأقلُّه في الغزل والهجاء)) .[6]

فهذه الخصائص التي تم ذكرها هنا هي خصائص تحمل جانبين ، الجانب الأول : هو جانب الجودة ، فالاعتماد على الطبع والتذوق الفطري السليم ، هي خصائص القول الشعري الجيد ،

ثانيا : الأنا في الدراسات الإنسانية :

مصطلح (الأنا) في اصل استعمله هو مصطلح منقول أو نقله الدارسون من الدراسات النفسية إلى الدراسات الأدبية والنقدية ، ولعل (فرويد) هو أول من تناول هذا المصطلح في دراسته للنفس الإنسانية ، الذي يرى أن الأنا تقع بين الهو والأنا الأعلى ، مُشكلة حلقة اتصال بين الحاجات الغريزية والعالم الخارجي الذي يقوم

بنقله إلى الهو وما فيه من نزعات ، محاولة أن تضع مبدأ محل مبدأ اللذة الي يسيطر على الهو [7] فقد رأى فرويد أن العمل الأدبي موقع أثري له دلالة واسعة، ولابد من كشف غوامضه وأسراره، فالإنسان يبني واقعه في علاقة أساسية مع رغباته المكبوتة ومخاوفه، ويعبر عنها في صورة سلوك أو لغة أو خيال [(8)]

ومن هنا يرى علماء النفس أن الشخصية الإنسانية تتكون من ((الأنا : أي : الذات ، فالنفس البشرية هي الأنا والأنا هي الذات بكل ما تحمله هذه النفس من خصائص ثقافية وإيدلوجية وما يشمل عليه من أفكار وآمال وطموحات وصراعات وتأثيرات ، وبالتالي فإن الذات تشكل مركز الشعور عند الإنسان ، فطبيعة الأنا خبرة شعورية ، تتجسد فيها وظيفة توحيد أشكال وضروب نشاط الإنسان حيث يشكل الأنا الجهاز التنفيذي لشخصية هذا الجهاز يتحكم في الهو / الآخر ويدير شؤونها)) [9]

وثمة نوع من الارتباط بين الـ (أنا) و (الذات) ، فقد عرفت الأخيرة بكونها مجموعة من الآراء والمعتقدات التي يكونها الفرد ليُعبر بها عن هويته من خلال البيئة التي يعيش فيها ' ولما كانت تلك الآراء والمعتقدات مصدرها الفرد فإنه من البديهي اتصافها بالنسبية ، إذ إنها تعطى صاحبها تصوراً خاصاً لذاته وإمكاناته وسماته ومجمل فاعلية شخصيته ' ولذلك فقد عرف بعض الفلاسفة الـ (أنا) بمجموعة الأحاسيس التي يشعر بها الإنسان والتي تذكره بها ذاكرته لتدفعه إلى القيام بما يحقق ذاته[10].

فالأنا هي تعبير خاص عن الذات / النفس ، يعبر عنها الإنسان تعبيرا لغويا كاشفا عن أحاسيسه ومشاعره ، فضلا عن موقفه من الآخر الذي يتخذ صورا مختلفة ، فالأنا هي نزوع نفسي محض ، وحينما نقول نفسي نعني أنه يخضع لضرورات المنهج النفسي التحليلي الذي أقره فرويد ، ولاسيما في تقسيمه الثلاثي الشهير للأنا .

ومن خلال (الأنا) يمكن أن تبنى الصورة المجازية بوصفها عنصرًا بنائيًّا بالغ الأهمية في بنية النص الشعري، وهي تجيء في قمة الهرم البنائي للقصيدة الشعرية، ذلك الذي يبدأ من البنية الصوتية ومرورًا بالبنى الصرفية والمعجمية والتركيبية؛ ولذلك كانت دراسة الأنا في النص الشعري من الأهمية بمكان وهي

دراسة تتوخى الإشارة إلى مفهومها وأهميتها ووظيفتها التي لا تقف عند حد الدور البنائي في النص الشعري، وإنما تتعداه إلى التمايز بين الشعراء في كيفية بنائها بوصفها عنصرًا حيويًّا من عناصر التكوين النفسي للتجربة الشعرية [11]

ومن هنا يمكن القول إن ((القصيدة تعبير عن رؤية الشاعر الذاتية لانفعال أو تجربة إنسانية، و بهذا التعبير الفني يخاطب الشاعر المتلقي خطاباً مؤثراً يجعله شريكاً فاعلاً في تذوق القصيدة أو العمل الفني و الانفعال به، و تعد القصيدة المستوفاة لهذه المواصفات في العرف النقدي من الشعر الـذاتي إذ يتميز الشعر الذاتي بوجود علاقة مباشرة بين أطراف ثلاثة :التجـربة الإنسانية، الـرؤية الذاتية للشاعر، المتلقي)) [(12)]

ثالثا : الأنا الحكيمة :

يرتب الشاعر معانيه في النفس أنغاماً يصوغ بها معنى الوجود ، يصبح بذاته ذاتاً كونية بالنتيجة، محاولة لخلق الجميل والأجمل، الذي يعزّز منظومة الفضائل الإنسانية، وهذه الذات قد تنشطر على نفسها، ما بين الذات المبدعة المتجلية في حالة المحاكاة (الخلق والإبداع) والذات الشخصية الاجتماعية، بعيدا عن عالم الإبداع، كل هذا في لحظة من الوقت [13] ومن معاني الوجود يسعى الشعراء إلى تشكيل المعاني الشعرية تشكيلا منسجما في الغالب والخبرة التي نحصّل عليها من الحياة ، فمن خلال الشعر يرسم صورة شعرية مفعمة بالخبرة الحياتية حيث الحكمة والقول السديد ، وقد تمثّل ابن الخياط الدمشقي الأنا الحكيمة في شعره تمثلا قائما على تجسيد خبرته في الحياة التي شكلت موقفا خاصا له إزاء قضايا الحياة ومشكلاتها ، راسما في ذلك كله صورة شعرية لذلك تعد الصورة الفنية أساس الخلق الشعري، فهي تشكيل جمالي ونفسي يتكون مما التقطته حواس الشاعر المبدع من مدركات حسية أو معنوية، بحسب طبيعة تأثره بها، حتى يمكن أن نطلّ منها على الباعث النفسي المتواري خلف ألفاظ القصيدة ومكوناتها الفنية وأسسها البنائية ومهيمناتها الأسلوبية ، وما تركته التجارب والمشاهد التي رافقت حياة الشاعر من آثار عميقة الغور في وجدانه، فتتدفق احساساته بصياغات جمالية محسوسة ومشحونة بعاطفة تستجيب لها نفس المتلقي على نحو تلقائي لتلمس انفعالات الشاعر وخلجات نفسه المعبرة عن نبوغه الفني وعبقريته الشعرية الفذّة عن طريق ربط الخيال بالصورة [14]

ومنه قوله :

وَمَـنْ يطْلُبْ لِلَمْعِ الْبَرْقِ شَأْواً يَجِدْهُ أَعزَّ مَطْلُوبٍ لَحـــاقا (بحر الوافر)
وَمَا بِالْجَدِّ فَاقَ النَّاسَ صـيـتاً وَلكِـــنْ بِالنَّدى وَالْبَأْسِ فَاقا
وَمَنْ خَطَبَ الْمَعالِيَ بِالْعـوَالِي وَبِالْجَذْوى فَقدْ أَرْبى الصّـدَاقا
وإن طرق العدى لم يرض منهم سوى هام الملوك له طراقا
وَقَدْ كَرِهَ التَّلاقِـــيَ كُلُّ صَبٍّ ... كَأَنَّ إِلــي الفِراقِ بِهِ اشْتِيَاقا
وَشَدَّد بِالْخِناقِ عَلَــى الأَعَادِي ... فَتـــىً رَاخِى بِنَائِلِهِ الْخِنَاقا [15]

تجربة إنسانية ذات عمق فلسفي عميق ، لقد بني النص هنا على وفق تجلي خلص لنزوع الأنا نحو معاني الحكمة ، الحكمة المستقاة من تجربة إنسانية معيشة ، لقد وظف الشاعر أسلوب الشرط (ومن يطلب للمع البرق) مع فعل الشرط (نجده أعز مطلوب لحاقا) ، فالشاعر قدّم حكمة مفادها ، إن الإنسان حينما يطلب الأشياء عسيرة المطلب (لمع البرق) ، فإنه يجده مطلوبا صعب المنال ، ثم استكمل معنى الحكمة في البيت الثاني ، مستخدما أسلوب النفي (وما بالجد) ، فالشاعر يرى أن صيت الناس (مكانتهم) ، تتحصل بالندى والبأس والعزيمة وليست بالمجد والتغني بالماضي ، وبذلك جعل الصورة الشعرية مبنية على تقابل دلالي بين قيمتين ، القيمة الأولى (المجد) والقيمة الثانية (الندى والبأس) ، والشاعر رجّح كفة القيمة الثانية ، ثم عرض حكمة أخرى

فالنظرة التأملية عند الشاعر لابد لها من رؤية شعرية تغلف تلك الرؤية بطابع أدبي رفيع ، بحيث تكون الصورة الشعرية بناء على ذلك رؤية ذات أبعاد متعددة حية متحركة ، تعكس مشاعر ابن الخياط الدمشقي وهو يخلق الصور ويصف العواطف.

ومنه قوله :

سَيُنْجِدُنِي جَيْشٌ مِنَ الْعَزْمِ طَالَمـا غَلَبْتُ بِهِ الْخَطْبَ الَّذِي هُوَ غَالِبـي (بحر الطويل)
وَمَنْ كَانَ حَرْبَ الدَّهْرِ عَوَّدَ نَفْسـهُ قِرَاعَ اللَّيَالِي لا قِرَاعَ الْكَـتَائِبِ
عَلَى أَنَّ لِي فِي مَذْهَبِ الصَّبْرِ مَذْهَباً يَزِيدُ اتِّساعاً عِنْدَ ضِيقِ الْمَذَاهِبِ

وَمَا وَضَعَتْ مِنِّي الْخُطُوبُ بِقَدْرِ مَا رَفَعْــنَ وَقَدْ هَذَّبْنَنِي بِالتَّجارِبِ
أَخَذْنَ ثَرَآءً غَيْرَ بَاقٍ عَلَى النَّـدى وَأَعْطَيْنَ فَضْلاً في النُّهى غيْرَ ذَاهِبِ [16]

لقد بنى الشاعر نصه هنا على وفق تمثيل خاص للأنا (الحكيمة) ، فالأنا أخذت تتمثل في ثنايا النص ، كاشفة عن تجربة حياتية حكيمة ، ففي البيت الأول قدّم ابن الخياط الدمشقي حكمة مفادها : إن أردت أن تتجد نفسك من مهالك الدنيا ، ما عليك إلا أن تغلب الخطوب ، ومن ثم في البيت الثاني كشفت الأنا عن حكمة أخرى ، إذ ترى أن الذي يحارب الدهر عليه أن يعود نفسه على قراع الليالي وليس قراع الكتائب ، ولعله قصد بـ (قراع الليالي) ، كناية عن قراع الهموم التي تزدحم على الإنسان في الليل .

ومن نماذج الأنا الحيمة في شعر الدمشقي ، قوله :

إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ مَوْئِلُ وَلَمْ يُغْنِ عَنْكَ الْحُزْنُ فَالصَّبْرُ أَجْمَلُ(بحر الطويل)
وَأَهْوَنُ مَا لاقَيْتَ مَا عَـزَّ دَفْعُهُ وَقَدْ يَصْعـُبُ الأَمْرُ الأَشَدُّ فَيَسْهُلُ
وَمَا هذِهِ الدُّنْيَا بِـــدَارِ إِقَامَةٍ فَيَحْزَنَ فِيهـــا الْقَاطِنُ الْمُتَرَحِّلُ
هِيَ الدَّارُ إِلاَّ أَنَّها كَمَـــفازَةٍ أَنَاخَ بِـــها رَكْبٌ وَرَكْبٌ تَحَمَّلُوا[17]

لقد تزاحمت الصور في هذه الأبيات ، فشكل كل بيت منها حكمة خاصة ، ففي البيت الأول ، يرى الشاعر أن التصدي لحوادث الدهر الكثير لا يكون بالحزن وجلد الذات ، بل يكون بالصبر والتأسي ، كون الصبر يكون أجمل وأنفع للإنسان ، ثم في البيت الثاني يرى أن صعاب الأمور يمكن تسهيلها ، وفي البيت الثالث يضع الشاعر للمتلقي توصيفا للحياة ، فينتزع منها صفة الإقامة والدوام ، فلا يجب على المرء الراجل القاطن أن يكون حزينا بائسا يائسا ، كون الجميع سائر نحو الزوال والرحيل حيث العالم الآخر ، ثم يصف الدنيا بالمفازة التي يمر بها ركب وركب تحمّلوا (رحلوا) ، وبذلك قد استكمل الشاعر عبر (الأنا) ، فرسم الصورة الشعرية القائمة على إظهار الحكمة التي تعبّر عن رؤيته للحياة والوجود .

ومن نماذج الأنا الحكيمة في شعر (ابن الخياط الدمشقي) قوله :

وَمَا كُلُّ دَانٍ مِنْ مَـرَامٍ بِظَافِرٍ وَلا كُلُّ نَآءٍ عَـنْ رَجآءٍ بِخَائِبِ (بحر البسيط)
وَإِنَّ الْغِنى مِنِّي لأَدْنى مَـسَافَةً وأَقْرَبُ مِمَّا بَيْنَ عَيْنِي وَحَاجِبِـي
سَأَصْحَبُ آمَالي إِلى ابْنِ مُـقَلَّدٍ فَتُنْجِحُ مَا أَلْوَى الزَّمَانُ بِـصَاحِبِ[18]

لقد تمثلت (الحكيمة) ، في هذه الأبيات الشعرية من خلال قيامها بعرض صورٍ من التفاخر بالذات ، وجاء هذا التفاخر من خلال تركيزه على عزة النفس التي تعد من أسمى القيم الخلقية عند العرب ، فالشاعر يرى أن الأمور ونليها لا تحقق بالقرب أو بالبعد ، بالقوة أو بالضعف ، فالقضية متربطة بالعزة والكرامة ، فلرب قريب من المغانم لا يقربها عزة وكرامة ، على الرغم من قرب الغنى منه ، وهي حكمة حياتية اجتماعية يحاول الشاعر الكشف عنها بطريقة فنية تستجمع الخيال وتستدعي الجمال ، فالأنا هنا حكيمة ذات خبرة حياتية واسعة ، لاكتها التجارب والمواقف ، فالصورة تقوم على جملة من العلاقات ينظمها خيال الشاعر , يربط العالم الداخلي والخارجي ربطا حسيا من خلال علاقة المشابهة [19]

بحيث يلجأ الشاعر إلى هذا النوع من المفارقات اللفظية والدلالية لبنية الكلمة أو الكلمة نفسها لكي يكشف عن تأثره الذاتي وأبعاده النفسية المتنامية بالتناقضات والصراعات الباطنية فيخفي دلالته داخل تلك البنيات المتكررة كمحطة لجوء فكري ونفسي تمكنه بالخلاص من الاغتراب والبوح بما يرنو إليه، وهذه الدلالات تحمل في طياتها تأثرات الشاعر وأصداءه الداخلية بمدلولاتها الخارجية لأنها تخلق توازنه مع الحياة [20]

ومنه قوله :

ألا فتًى مِنْ صُروفِ الدَّهرِ يَحْمِيني ألا كَريمٌ علــى الأيامِ يُعْدِينـي (بحر الطويل)
مضى الكِرامُ وقَدْ خُلِّفْتُ بعدَهُـمُ أشكو الزّمانَ إلى مَنْ ليسَ يُشكيني
كمْ أستفيدُ أخاً برّاً فيعجِزُنِـــي وأبْتَغِي ماجِداً مَحْضاً فيُعْيينـــي
أرجُو السَّماحَةَ مِمَّنْ ليسَ يُسعِفُني وأبْتغِي الرِّفدَ مِمَّنْ لا يُواسِينـــي
لوْ كنتُ أقدِرُ والأقدارُ غالبَــةٌ لبِـعْتُ فَضْلِي بِحَظِّي غيرَ مغْبونِ

يا هذهِ قدْ أصابَ الدَّهرُ حاجَتـهُ مِنّي فحتّامَ لا ينفكُّ يرمِينـــي

إنْ كانَ يَجْهَدُ أن أصْلى نوائبَـهُ جمعاً فواحِدَةٌ منهُنَّ تكْفِينـــي

كأنَّهُ ليسَ يغْدُو مُرْسِلاً يَـدَهُ بكلِّ نافذةٍ إلا ليصْمينـــي

سلوْتُ لا مللاً عمَّنْ كلِفْتُ بـهِ وَمِـثلُ ما نالَ مِنّي الدَّهْرُ يُسْلِيني

مَنْ كانَ ذا أُسْوَةٍ فِيمَنْ بهِ حَـزَنٌ فاليومَ بـي يتأسّى كلُّ محزُونِ[21]

ونخلص مما تقدم يمكن القول : إن (الأنا) الحكيمة في شعر (ابن الخياط) إنما دللت على ثراء تجربته في الحياة ، فضلا عن نضجها ، فجاءت الصور الشعرية صورا حاول فيها الشاعر ربط الواقع بالخيال والمقدمات بالخواتيم والأسباب بالنتائج ، كل ذلك صاغه ضمن نسيج شعري خاص ، فالحكمة تمثل خلاصة التجربة التي خاضها وعاشها الدمشقي ، استطاع أن يكشفها للمتلقي بصور شعرية فاعلة قادرة على التمثل والتمثيل ، رابطا بين معطى الغرض (الحكمة) ومعطى الدلالة (الجمالية) ، فالحكمة عرضها بصور شعرية جميلة .

رابعا : الأنا المتعالية :

تقوم (الانا) المتعالية على الفخر الذاتي والاعتداد بالنفس والتغني بالبطولات , ويعد التعالي بالذات من ابرز الموضوعات الشعرية التي حفل بها الشعر العربي القديم على امتداد عصوره ويضارعه في ذلك غرض المديح كونه غرضاً قائما على الإشادة بفضائل النفس أو الذات وتعداد مناقبها ومآثرها [22]

فالشعور بالتعالي عند الشعراء شعور كما قلنا نابع من إحساس نفسي داخلي يشعر من خلاله الشاعر بأنه انسان يمتلك صفات وخصائص إنسانية مختلفة عن الآخرين , لذلك قد يشعر الشاعر بسبب من تعاليه على الآخرين بالاغتراب وبذلك قد ((حقق نغمة ناتجة عن ترديد هذا الكم من الأصوات، والباعث على هذا الكم من التكرار الانفعال، والتوتر النفسي المحقق للأبعاد الدلالية والتعبيرية بشحن النص وتحريكه بالإيحاءات الإشارية، التي تثمر دفقاً من الدلالات الباعثة على الاغتراب))[23]

نجد كثيراً من الشعراء تشتغل الانا المتعالية في قصائدهم من خلال الفخر بالصفات الحميدة على مستوى الذات , كالفخر بالشجاعة والصدق والأمانة والفصاحة واللغة الشعرية العالية ، وهذا ما يسمى بالفخر بالذات وهو ((الافتخار الفردي ويقوم على مجموعة من الصفات الشخصية التي يتباها بها الشاعر على غيره ...))[24]

ومن نماذج الأنا المتعالية في شعر ابن الخياط الدمشقي ، قوله :

وَإِنّي لأَغْنى بِالْحدِيثِ عَنِ الْقِرى وَبِالْبَرْقِ عَنْ صوْبِ الْغُيُوثِ السَّواكِبِ(بحر الطويل)
قَنَاعَـــةُ عِزٍّ لا طَمَاعَةُ ذِلَّةٍ تُزَهِّدُ فـــي نَيْلِ الْغِنى كُل رَاغِبِ
إِذَا مَا امْتطَى الأَقْوَامُ مَرْكَبَ ثَرْوَةٍ خُـضُوعاً رَأَيْتُ الْعُدْمَ خَيْرَ مَرَاكِبِي
وَلَوْ رَكِبَ النَّاسُ الْغِنى بِـبَرَاعَةٍ وَفَضْلٍ مُـــبِينٍ كُنْتُ أَوَّلَ رَاكِبِ
وَقَدْ أَبْلُغُ الْغَايَاتِ لَسْتُ بِـــسَائِرٍ وَأَظْفَرُ بِالْحَاجَاتِ لَســـتُ بِطَالِبِ[25]

لقد بنى الشاعر هنا نصه الشعري على وفق رؤية ذات بعد متعالٍ ، وهذا التعالي مردّه عدة صفات عمد إلى الكشف عنها بهذا النسيج الشعري ، إذ بدأ نصه بالحرف المشبه بالفعل (وإني) ، تدليلا عن (الأنا) المتعالية ، فالشاعر يحاول أن يصوّر نفسه بعزة النفس والقناعة ، والزهد عن كل ما يوجب الذلة والخنوع فضلا عن الوهن ،و يُكرم ولكن لا يتحدث عن ذلك ، ويصف نفسه بالبرق الذي يصيب الغيوث السواكب ، ثم يستكمل صورة الأنا المتعالية ، من خلال رسم صورتين متعارضتين ، الصورة الأولى ، تكشف عن حالة التخلي التي آمن بها ، فهو ينأى بنفسه عن كل مغنمة فيها خنوع ،وهي حالة (الإحجام) التي عبر عنها علماء النفس ، أما الصورة الثانية ، فهي تمثل حالة الإقبال ، فالشاعر يقدم مع قومه إذا ما رافقه البراعة ، فتكون حينئذ أول الراكبين ، وهي حالة (الإقدام) عند علماء النفس ، بيد أن الشاعر في كلتا الحالتين أو الصورتين (الإحجام) و (الإقدام) ، يفتخر بنفسه والأنا في حالة التعالي . والشاعر يعمل على جعل المتضادات الدلالية مترابطة متماسكة دلالياً من خلال إعادة النظر في دلالة كل لفظ وجعلها في نسق تعبيري مغاير ، بحيث يجعل المتلقي مندهشاً بذلك النسق ، وهنا يكمن إبداع الشاعر ، وعد يتم ذلك بوساطة التشبيه الذي يعد في النسق الشعري

((بيان أنَّ شيئاً من الأشياء أو معنى من المعاني قد شارك غيره في صفة أو أكثر أو في خصيصة أو أكثر بإظهارها ، بما يجعل وجه الشبه بوصفه معنى أو صورة ، وهو القصد الذي ذهب إلى تعبيره جملة التشبيه)) [26]

ومن نماذج الأنا المتعالية في شعره ، قوله :

وَمَنْ لِي بِأَنْ يُبْتَاعَ مِنِّي وَإِنَّمـا أُقِيمُ لِماءِ الْوَجْهِ سُوقَ هَـوَانِ (بحر الهسزج)
إِذَا رُمْتُ أَنْ أَلْقى بِهِ الْقَوْمَ لَمْ يَزَلْ حَيائِي وَمَـسُّ الْعُدْمِ يَقْتَتِلانِ
أَخَافُ سُؤَالَ الْبَاخِلِينَ كَأَنَّنِـي مُلاقِي الْوَغى كُرْهاً بِقَلْبِ جَبَانِ
قَعَدْتُ بِمَجْرَى الْحَادِثَاتِ مـُعَرَّضاً لأَسْبَابِها مَا شِـئْنَ فِيّ أَتَانِي
مُصَاحِبَ أَيَّامٍ تُجُرُّ ذُيُـولَها عَلَـيَّ بِأَنْواعٍ مِنَ الْحَدَثانِ
أَرَى الرِّزْقَ أَمَّا الْعَزْمُ مِنِّي فَمُوشِكٌ إِلَيْهِ وَأَمَّا الْحَـظُّ عَنْهُ فَوانِ [27]

يكشف النص أن الشاعر يمتلك ((القدرة على تنظيم نفسها بما يحفظ لها وحدتها ، ويضمن لها البقاء ، ويُحقق شكلاً من الانغلاق الذّاتي، والبنية بهذا التصور لا تحتاج إلى سلطان خارجي لتحريكها)) [(28)]

وهذه القدرة العالية يكشف عنها الشاعر عن مقدرة على تمثل الأنا المتعالية على وفق تمثل فني خاص ، إذ بدأ الشاعر نصه بالفخر بنفسه ، فهو يفضل أن يعيش بعزة ويحفظ ماء وجه بدلا من العيش بالهوان والذلة ، ثم استكمل بناء الأنا المتعالية في البيت الثاني ، فالشاعر يبني صورة متعالية من خلال إقامة جملة شرطية بأداة الشرط (إذا) ، فالشاعر يصرح أنه إذا رام لقاء القوم وطلب الحاجة منهم ، فإن حياءه ومس العدم في ذاته يقتتلان ، بمعنى أن الشاعر يعيش حالة من الصراع الداخلي ، بين طومح الأنا الطامعة في تحصيل من ترغب به من ملذات ، وبين الأنا الرافضة للذل والهوان ، ومن هنا يمكن القول إن ((الأشكال الشعرية أو اللّغة الجديدة وكل جديد تكتنز به القصيدة لايكون في بداية الأمر هدفاً من أهداف الشاعر، بل إنه يولد من خلال المعاناة والتعبير عن التجربة الشعرية)) [(29)]

ومنه قوله :

وَمِـــنْ أَنْكَدِ الأَحْدَاثِ عِنْدِيَ أَنَّنِي عَلَى نَكَدِ الأَحْـدَاثِ غَيْرُ مُعَانِ (بحر بسيط)
فَها أَنَا مَـــتْرُوكٌ وَكُلَّ عَظِيـمَةٍ أُقارِعُها شَأْنَ الْخُطُوبِ وَشَانِي
فَعَثْراً لِدَهْرٍ لا تَرى فـــيهِ قَائلاً لَعَاً لِفَتىً زَلَّتْ بِـــهِ الْقَدَمَانِ
فَهَلْ أَنْتَ مُولٍ نِعْمةً فَمُـــبَادِرٌ إِلَيَّ وَقَدْ أَلْقَـى الرِّدى بِجِرانِ
وَحَطَّ عَليَّ الدَّهْرُ أَثْقالَ لُؤْمِـــهِ وَتِلْكَ الَّتِي يَعْيـَا بِها الثَّقَلانِ
وَمُسْتَخْلِصِي مِنْ قَبْضَةِ الْفَقْرِ بَعْدَمَا تَمَلَّكَ رِقِّي ذُلُّهُ وَحَـــوانِي
وَجَاعِلُ حَمْدِي مَا بَقِيتُ مُخـــلَّداً عَلَيكَ وَمَا أَرْسَتْ هِضَابُ أَبَانِ
إِذاً تَقْتَنِي شُـكْرَ امْرِيءٍ غَيْرِ هَادِمٍ بِكُفْرِ الأَيَادِي مَا ارْتيَاحُكَ بانِ[30]

القصيدة هنا هي حوار مفتوح يجمع بين الأنا الشعرية والآخر الذي يعيد أنتاجها الدلالي من خلال التمعن بمنظورها والقراءة المتواصلة ليصنع رؤيته الإبداعية في بنية النص الشعري فيربط الأبعاد المضمونية التي تنسجم داخل البنية مع اللغة ، ولا يتم تكامل آليات البنية إلاّ بالصورة المتجسدة التي ترتكز على أنها تجربة خيالية تضفي على سطح البنية عامل الإدهاش والغرابة فهي آلية من آلياتها التي تشكل علاقة تواثقية مع سائر مكونات النص الشعري[31] فالشاعر منذ البيت الأول يصرح أنه غير معنٍ بنكد الدهر وتقلباته ، فهي رجل يقارع الخطوب العظيمة التي تثني شجعان الرجال ، فهو مقارع الدهر وغالبه ، وعلى الرغم مما رمى عليه الدهر من رزايا ومصائب إلا أنه دائم الحمد والثناء لله على ما أبلاه ، فالقصيدة تعجّ بأنا متعالية ، تفوح بالفخر (الفخر بالذات) ، وهو عنوان التعالي ، إذ يرى نفسه مختلفا عن الآخرين . في هذه الصورة، يتجه الشاعر إلى الحواس الخمس في خلقه الشِعري، ولا فرق بين الحقيقي والمجازي، والحواس هي النافذة التي يستقبل بها الذهن مواد التجربة الخام، فيعيد تشكيلها على وفق ما يتصوره من معان ودلالات، غير أن الصور الموحية لا تتأتى من مجرد حشد المدركات الحسية ووصفها، وإنما تتطلب نوعا من العلاقة الجدلية بين الذات المبدعة ومدركاتها الحسية، فنحذف منها أشياء ونضيف إليها اشياء أخرى، ويعاد تركيب تلك المدركات في صور مغايرة لكل اشكالها المألوفة [32]

ونخلص مما تقدم ، أن الأنا المتعالية قد تجلّت في شعر ابن الخياط الدمشقي بصورة تثير دهشة المتلقي / القارئ ، من خلال الركون إلى لغة تعبيرية خاصة ، كاشفة عن نفس متعالية معتدة بالنفس ، بيد أن

الشاعر استطاع أن يضع المتلقي على مسببات ذلك التعالي ، فتارة يصف نفسه بالشجاع وتارة بالصبور وتارة بالكريم وتارة بصفات أخرى ، كلها تدخل ما يعرف بالفخر أو التعالي ، فجاءت الصور جميلة كاشفة وراصدة للأنا المتعالية في شعر الدمشقي .

الخاتمة :

١- النص الشعري هو تمثل فني من نوع خاص ، تجنح بواسطته الذات نحو تمثيل يكشف عن المعناة النفسية الداخلية ، التي تعد الرافد الرئيس لكل (أنا) داخل النص الشعري ، فأخذت تلك (الأنا) طريقها في عملية خلق الصور الشعرية وبنائها .

٢- تمثل الأنا داخل النص الشعري انعكاس للحالة الشعورية والنفسية للشاعر ، يكشف من خلالها عن تجليات تلك الحالة بنسيج لغوي كاشف وقادر في الوقت نفسه ، فالأنا تمثل صراح النفس ، أو هي أشبه بالحوار الداخلي الذي من خلاله يستطيع الشاعر التعبير عما يعانيه شعرا.

٣- تمثل الأنا رؤية الشاعر عن نفسه ، بمعنى أنها تكشف عن خصائص الذات الداخلية ، ومن خلالها تتحدد طبيعة علاقتها بالآخر ولاسيما الآخر المختلف ، كنوع من البوح الخالص ، والتعبير الصريح الصادق ، فتحديد الصفات والكشف عن الخصائص تحتاج إلى مقدرة عالية في الوصف والتوصيف ، رابطا قدر المستطاع بين الواقع (المثال) والخيال .

٤- يمثل شعر (ابن الخياط الدمشقي) مظنة خاصة لتمثل الأنا ، ولاسيما الأنا المتعالية والأنا الحكيمة ، فقد جاءت في شعره على وفق نظام شعري يحاول فيه الشاعر إدهاش المتلقي ، من خلال ربط الصور والتقابلات الدلالية المترابطة والمتضادة ، خدمة للصورة الشعرية .

٥- تمثل الأنا الحكيمة في شعر ابن الخياط الدمشقي خبرة حياتية معيشة ، أو هي خلاصة خبرته في الحياة ، فالحكمة هي محاولة في توظيف الخبرة الحياتية في تقديم صورة شعرية تختزلها والشاعر قد نحج في عرضها في مشهد شعري ، محاولا فيها ربط الواقع بالخيال .

٦- تمثل الأنا الحكيمة في شعر ابن الخياط الدمشقي رؤية الشاعر إزاء الوجود الإنساني بكل تجلياته وعبرت من خلال شعره عن تجربته في الحياة ، فجاءت الصور الشعرية معبرة وكاشفة عن تلك التجربة ، صاغها الدمشقي على وفق لغة شعرية خاصة ، ربط فيها الجمالية العالية بالنفعية ، فجاءت بنسيج شعري مفعم بالحيوية .

الهوامش :

١- اعلام سير النبلاء : ١٩: ٤٧٧

٢- وفيات الأعيان : ١: ١٤٥

٣- تاريخ الأدب العربيّ: من مطلع القرن الخامس الهجريّ إلى الفتح العثمانيّ,عمر فرّوخ,ج٣,ص ٢٢٤,ص ٢٥٧,دار العلم للملايين, بيروت الطَّبعة الرَّابعة.

٤- ينظر : اريخ آداب اللغة العربيةجرجي زيدان . دار الهلال – القاهرة. رقم الطبعة غير مدون – ١٩٥٧. ج. ٣، ص. ٢٨

٥- المصدر السَّابق, ص ٢٥٧ .

٦- يُنظر : الموسوعة العربيَّة(باللُّغة العربيَّة),عمر الدقَّاق (ابن الخيَّاط الدِّمشقيُّ), ص ٤٥.

٧- ينظر : الأنا والهو ، سيجكود فرويد : ١٤

٨- ينظر: دليل الناقد الأدبي ، إضاءة لأكثر من سبعين تياراً أو مصطلحا نقدياً معاصراً ، د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط٣ ، ٢٠٠٢ : ٣٣٣.

٩- البحث عن الذات ، اغركون : ١٠-١١

١٠- البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب / ١٦٠ .

جدلية الخفاء والتجلي، د/ كمال أبو ديب: ط ٤/ ١٩٩٥ م دار العلم للملايين: ١٩

١١- التجربة في الشعر الذاتي و الموضوعي، بشري العدلي: . https://shoaletalebdaa.com

١٢- ينظر : علم اجتماع الادب , سيد بحراوي , منشورات عالم الفكر , ٢٠٠٧ : ١٢

١٣- ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب , د. جابر عصفور , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط٣ , ١٩٩٢ : ١٤

١٤- الديوان : ١/ ٣

١٥- الديوان : ١/ ١٣

١٦- الديوان : ١/ ٣٠

١٧- الديوان : ١/ ١٤

١٨- ينظر : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم , العلامة محمد علي التهاوني , تقديم : د. رفيق العجم , تحقيق : علي دحدوح , مكتبة ناشرون (بيروت) , الطبعة الاولى , ١٩٩٦ .: ٢- ١١٠٠ .

١٩- ينظر : : أبو فراس الحمدانيّ الموقف والتشكيل الجماليّ ، النعمان القاضي ، ص٥٠١

٢٠- ديوان ابن الخَياط الدِّمشقيّ ,ص١٤٦ .

٢١- ينتظر : أروع ما قيل في الفخر , يحيى شامي , دار الفكر بيروت : ٥

23- ينظر: ظاهرة الاغتراب في شعر سعدي يوسف ، ريحانة ملازاده ، ص٣٧

٢٤- الفخر بين الذات والآخر في شعر قيس بن الخطيم , حسن سعد لطيف : ٤

٢٥- الديوان : ١:٤٣

[26]-- أسلوبية البيان العربي ، من آفاق القواعد المعيارية إلى آفاق النص الإبداعي ، د. رحمن غركان ، دار الرائي للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٨م ، ٤٨

٢٦- الديوان : ١/ ١٩

٢٧- الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقديّة المعاصرة والنظريات الشعرية : دراسة في الأصول والمفاهيم ، د . بشير تاوريريت ، ص٣١ .

٢٨- الديوان : ١/ ٢٣٤

٢٩- قضايا الشعر الحديث ، جهاد فاضل ، ص٢١١ .

٣٠- الديوان : ١/ ٢٠

٣١- ينظر : الصورة والبناء الشعري ، محمد حسن عبدالله ، ص١٩.

٣٢- ينظر: الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث ، محمد علي كندي ، ص ٢٩ .

المصادر :

١- أبو فراس الحمدانيّ الموقف والتشكيل الجماليّ ، النعمان القاضي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع, ١٩٨٢.

٢- أروع ما قيل في الفخر ، يحيى شامي , دار الفكر بيروت ، د.ت

٣- اريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان . دار الهلال – القاهرة. رقم الطبعة غير مدون – ١٩٥٧.

٤- أسلوبية البيان العربي ، من آفاق القواعد المعيارية إلى آفاق النص الإبداعي ، د. رحمن غركان ، دار الرائي للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٨م ، ٤٨

٥- اعلام سير النبلاء ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله ، مؤسسة الرسالة ، أ شرف على تحقيقه : الشيخ / شعيب الأرنؤوط ، الطبعة: الطبعة الحادية عشر ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م

٦- الأنا والهو ، سيجكود فرويد ، ترجمة : محمد عثمان ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

٧- البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر الطبعة الاولى ١٩٩٤

i.تاريخ الأدب العربيّ: من مطلع القرن الخامس الهجريّ إلى الفتح العثمانيّ, عمر فرّوخ,ج٣,ص ٢٢٤,ص ٢٥٧,دار العلم للملايين, بيروت الطَّبعة الرَّابعة.

٨- التجربة في الشعر الذاتي و الموضوعي، بشري العدلي: . https://shoaletalebdaa.com

i.جدلية الخفاء والتجلي، د/ كمال أبو ديب: ط ٤/ ١٩٩٥ م دار العلم للملايين

٩- الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقديّة المعاصرة والنظريات الشعرية : دراسة في الأصول والمفاهيم ، د . بشير تاوريريت

١٠- دليل الناقد الأدبي ، إضاءة لأكثر من سبعين تياراً أو مصطلحا نقدياً معاصراً ، د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط٣ ، ٢٠٠٢ : ٣٣٣.

١١- ديوان ابن الخَياط الدِّمشقيّ ، المطبعة الهاشمية ، عمان ، ٢٠١٥

١٢- الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث ، السياب ونازك والبياتي ، محمد علي كندي ، الدار الجديد المتحدة ،
١٣- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب , د. جابر عصفور , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط٣ , ١٩٩٢
١٤- الصورة والبناء الشعري ، محمد حسن عبدالله ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف ، مصر .
١٥- ظاهرة الاغتراب في شعر سعدي يوسف ، ريحانة ملازاده ، مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها ، مجلد : ١١ ، العدد : ٣٦ لسنة ٢٠١٥
١٦- علم اجتماع الادب , سيد بحراوي , منشورات عالم الفكر , ٢٠٠٧
١٧- الفخر بين الذات والآخر في شعر قيس بن الخطيم , حسن سعد لطيف ، المصدر. مجلة جامعة ذي قار ; العدد. المجلد ٧، العدد ٣ (٣٠ يونيو/حزيران ٢٠١٢
١٨- قضايا الشعر الحديث ، جهاد فاضل ، دار الشروق ، ١٩٨٤
١٩- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم , العلامة محمد علي التهاوني , تقديم : د. رفيق العجم , تحقيق : علي دحدوح , مكتبة ناشرون (بيروت) , الطبعة الاولى , ١٩٩٦ .: ٢- ١١٠٠ .
٢٠- وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٨